من بدائع الفوائد

ذم الحسد وأهله

تصنيف
الحافظ العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١هـ

علق عليه وخرج أحاديثه
علي حسن علي عبد الحميد

دار القبس

دار عمار

ذم الحسد وأهله

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار القبس: عمّان - هاتف ٦٢١٢١١ - ص.ب ١٨٤٢٠٥

دار عمّار: عمّان - هاتف ٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

من بدائع الفوائد

ذم الحسد وأهله

تصنيف
الحافظ العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١هـ

علق عليه وخرج أحاديثه
علي حسن علي عبد الحميد

دار عمار
عمّان

دار القبس
عمّان

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

أما بعد

فهـذه رسالة لطيفة استللتها من كتاب «بدائع الفوائد»(١) للحافظ الكبير الإمام شمس الدين بن قيم الجَوْزية ـ رحمه الله تعالى ـ ، تعالج مرضاً خطيراً ورد ذكره في كتاب الله سبحانه وتعالى، وفي سنة رسوله ﷺ ، وهو مرض «الحَسَد» .

والإمام ابن القيم من كبار أئمة الإسلام المُصلحين ، ذو مؤلفـات كثيرة نافعة ، أفرد عدداً منها في البحث في أمراض القلوب ، وعلل النفـوس ، فرحمـه الله ورضي عنـه ، ونفـع برسالته ، وكتب الأجر لمن أفاد بها واستفاد منها ، آمين .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

[فلقد ورد في «سورة الفَلَق» من كتاب الله تعالى الإستعاذةُ من شرورٍ أربعة ، آخرها هو] الشرّ الرابع : شر الحاسد(١) إذا حسد ، وقد دلّ القرآنُ والسنة على أنّ نفسَ حَسَدِ الحاسدِ يُؤذي المحسودَ ، فَنَفْسُ حَسَدِهِ يتصلُ بالمحسود من نفسه وعينه ، وإنْ لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فحققَّ الشَّرَّ منه عند صدور الحسد ، والقرآنُ ليس فيه لفظةٌ مهملةٌ ، ومعلومٌ أن الحاسد لا يُسمّى حاسداً إلاّ

(١) قال الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على «التفسير القيم» (ص ٥٧٤) : أصل الحسد في اللغة : بغض نعمة الله ، وتمني زوالها عن المحسود أو تحولها إلى الحاسد . . الخ ، وسيأتي شرح المصنف له .

إذا قام به الحسدُ ، كالضاربِ ، والشاتمِ ، والقاتلِ ، ونحو ذلك ، ولكن قد يكون الرجلُ في طَبعْه الحَسَدُ وهو غافلٌ عن المحسود لاهٍ عنه ، فإذا خطر على ذِكره وقلبه انبعثَتْ نارُ الحَسَد من قلبه إليه وتَوجّهت إليه سهامُ الحسد من قبلِه فيتأذى المحسودُ بمجرد ذلك ، فإن لم يستعذ بالله ويتحصّن به ، ويكونُ له أورادٌ من الأذكار والدعوات والتوجّه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شرّه بمقدار توجّهه وإقباله على الله وإلا ناله شرُّ الحاسد ولا بُد فقوله تعالى : ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيانٌ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحَسَدَ بالفعلِ . وقد ورد في حديث أبي سعيد الصحيح[1] رقية جبريل النبي ﷺ وفيها : «بسم الله أَرقيك من كل شيء يُؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك» ، فهذا فيه الاستعاذةُ من شر عين الحاسد .

ومعلومٌ أنّ عينه لا تُؤثّر بمجردها ، إذْ لو نَظَرَ إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه كما ينظر إلى الأرض والجَبَل وغيره لم يُؤَثّر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر إليه نظر مَنْ قد تكيّفت نفسُه الخبيثةُ وانسمَّت واحتدّت فصارت نفساً غَضَبيّةً حاسدة أثّرت بها تلك النظرةُ فأثّرت في المحسود تأثيراً بحسب صفة ضَعْفه وقوّة نَفس الحاسد ، فربما أَعْطَبَهُ وأهلكه بمنزلة من فَوَّق[2] سَهْماً نحو

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢).
(٢) سدّد وصوّب.

رجلٍ عُـريانَ فأصاب منه مقتَلاً وربما صرعه وأمرضه .

والتجارِبُ عند الخاصّة والعامة بهذا أكثرُ من أن تُذكر .

وهذه العينُ إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ، وهي في ذلك بمنزلة الحيَّة التي إنما يُؤثر سمُّها إذا عضّت واحتدّت ، فإنها تتكيّف بكيفية الغضب والخبث فتحُدث فيها تلك الكيفيةُ السمَّ ، فتؤثّر في الملسوع وربّما قويت تلك الكيفيةُ واشتدّت في نوع منها حتى تُؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصرَ وتسقط الحبلَ كما ذكره النبي ﷺ في الأبتـر وذي الـطُّفيتين منها ، وقال: «اقتلوهما فإنهما يَطمسان البصرَ ويُسقطان الحبل»[1] .

فإذا كان هذا في الحيّات فما الظنُّ في النفوس الشريرة الغَضَبية الحاسدة إذا تكيّفت بكيفيتها الغَضَبية وانسمّتْ وتوجّهَتْ إلى المحسود بكيفيتها ، فلله كم من قتيلٍ ؟ وكم من سليب ؟ وكم من مُعافى عاد مُضْنىً على فراشه يقول طبيبه : لا أعلم داءَه ما هو ! فَصَدَقَ ، ليس هذا الداءُ من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتِها ومعرفةِ تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها ، وهذا علمٌ لا يعرفه إلا خواصّ الناس .

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٢) ومسلم (٢٢٣٢) ومالك (٢/٩٧٦) عن عائشة.

والمحجوبون مُنكرون له ولا يعلم تأثيرَ ذلك وارتباطَه بالطبيعةِ وانفعالِها عنه إلّا مَن له نصيبٌ مِن ذوقه وهل الأجسام إلا كالخشب المُلقىٰ ، وهل الانفعالُ والتأثّرُ وحدوثُ ما يحدثُ عنها من الأفعالِ العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح ، والأجسامُ آلتُها بمنزلة آلة الصانع فالصّنعة في الحقيقة له ، والآلات وسائطُ في وصول أثره إلى الصنع ، ومن له أدنى فِطْنة ، وتأمَّلَ أحوالَ العالَم ولَطُفَت روحُه ، وشاهَدَتْ أحوالَ الأرواحِ وتأثيراتِها وتحريكَها الأجسامَ وانفعالَها عنها ، كلُّ ذلك بتقدير العزيز العليم خالقِ الأسباب والمُسَبِّبات ، رأى عجائبَ في الكون وآياتٍ دالةً على وحدانية الله وعظمته وربوبيته وأنّ ثَمَّ عالماً آخرَ تجري عليه أحكامٌ أُخَرٌ تشهد آثارَها وأسبابَها غَيبٌ عن الأبصار .

فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين الذي أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خَلَقَه .

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح بل هو أعظمُ وأوسع وعجائبه أبهَرُ وآياته أعجبُ ، وتأمّل هذا الهيكلَ الإنسانيَّ إذا فارَقَتْه الروحُ كيف يصير بمنزلة الخَشَبة أو القطعة من اللحم ، فأين ذهبت تلك العلومُ والمعارفُ والعقلُ وتلك الصنائعُ الغريبةُ وتلك الأفعالُ العجيبةُ وتلك الأفكارُ

والتدبيراتُ ؟ كيف ذهبت كلُّها مع الروحِ وبقي الهيكلُ سواء هو والتراب ؟ وهل يخاطبك من الإنسان ، أو يراك أو يحبك أو يُواليك ، أو يعاديك ، ويخفّ عليك أو يُثقل ويُؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر فرُبّ رجلٍ عظيمُ الهَيُولىٰ[2] كبيرُ الجثّة خفيفٌ على قلبك حلوٌ عندك ، وآخرُ لطيفُ الخِلْقة صغيرُ الجثّة ، أثقلُ على قلبك منْ جبلٍ ، وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفّتها وحلاوتها وكثافة هذا وغِلَظ روحه ومرارتِها ، وبالجملة فالعُلَق والوُصَل[3] التي بين الأشخاص والمنافرات والبُعد ، إنما هي للأرواح أصلاً ، والأشباح تَبَعاً .

---

(١) مريض .

(٢) مادة الشيء التي يصنع منها .

(٣) أي الروابط والصلات .

فصـــل

والعائنُ والحاسد يشتركانِ في شيء ، ويفترقان في شيء :

فيشتـركانِ في أنّ كلّ واحد منهما تتكيّفُ نفسُه ، وتتوجّه نحوَ من يريد أذاه .

فالعائن : تتكيف نفسُه عند مُقابلة المعين ومُعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غَيْبة المحسودِ وحضوره أيضاً .

ويفتـرقـانِ في أن العائنَ قد يُصيب من لا يحسده ، من جماد أو حيوان ، أو زَرْع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفكّ من حَسَد صاحبه ، وربما أصابت عينُه نفسَه . فإنَّ رؤيته للشيء رؤيةَ تعجّبٍ وتحديقٍ ، مع تكيّف نفسِه بتلك الكيفية : تُؤثر في المعين .

وقد قال غيرُ واحد من المفسرين في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الّذينَ كَفَروا لَيُـزْلِقُونَكَ بِأَبصَارِهِم لَمَّا سَمِعوا الذِّكرَ﴾[1] : إنه الإصابةُ بالعين ، أرادوا أن يُصيبوا بها رسولَ الله ﷺ ، فنظر إليه قوم من العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثلَه ، ولا مثل حُجَّته . وكان طائفة منهم تمرُّ به الناقةُ والبقرة السمينةُ فيَعينُها ، ثم يقول

(١) سورة القلم : ٥١ .

لخادمه: خُذِ المِكْتَلَ والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرحُ حتى تَقَعَ، فتُنحر[1].

وقال الكَلْبي: كان رجلٌ من العَرَب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفعُ جانب خِبائه[2]، فتمر به الإبل، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غَنَماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقطَ منها طائفةٌ، فسأل الكفارُ هذا الرجل أن يصيبَ رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره. فعصم الله رسولَه وحفظَه. وأنزل عليه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم﴾ هذا قولُ طائفة[3].

وقالت طائفة أخرى، منهم ابنُ قُتَيبة[4]: ليس المراد: أنهم يصيبونك بالعين، كما يُصيب العائنُ بعينه ما يُعجبه، وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأتَ القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يُسقِطك. قال الزَّجّاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نَظَرَ البغضاء أن يَصرعوك. وهذا

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/٢٥٨) و«زاد المسير» (٨/٣٤٤) وقال ابن كثير: وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل.
(٢) هو بيت من وبر أو صوف، «المصباح المنير» (١/١٦٣).
(٣) انظر «أسباب النزول» (ص ٢٤٩) للواحدي.
(٤) في «تفسير غريب القرآن» (٤٨٢).

مُستعمَل في الكلام . يقول القائل: نظر إليَّ نظراً كاد يصرعني .

قال: ويدلُّ على صحة هذا المعنى: أنه قَرَنَ هذا النظَر بسماع القرآن ، وهم كانوا يكرهون ذلك أشَدَّ الكراهية ، فيُحِدُّون إليه النظر بالبغضاء .

قلت: النظرُ الذي يُؤثر في المنظور: قد يكون سببُه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظرُه فيه ، كما تؤثر نفسُه بالحسد ، ويقوىٰ تأثير النفس عند المقابلة . فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه ، فإذا عاينه قُبُلًا اجتمعت الهمَّة عليه ، وتوجّهت النفُس بكليتها إليه . فيتأثّر بنظره ، حتى إنَّ من الناس من يسقطُ ، ومِنْهم مَن يُحَمُّ ، ومنهم من يُحمل إلى بيته . وقد شاهد الناسُ من ذلك كثيراً[1] .

وقد يكون سببُه الإعجابَ ، وهو الذي يسمّونه: بإصابة العين . وهو أنّ الناظر يرى الشيءَ رُؤْيةَ إعجابٍ به أو استعظام ، فتتكيّف روحُه بكيفية خاصة تؤثر في المَعين ، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رُؤية المعين ، فإنهم يَستحسنون الشيءَ ويُعجبون منه ، فيصاب بذلك .

(١) وهذا لا زلنا نراه إلى اليوم، فإلى الله المشتكى من الحاسدين وشرورهم!

قال عبدالرزاق: عن مَعمَر عن هشام بن مُنبّه[1] قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العَينْ حقٌّ ، ونهى عن الوَشم»[2] .

وروى سُفيان عن عمرو بن دينار عن عُروة بن[3] عامر عن عُبيد بن رِفاعة أنّ أسماءَ بنت عُمَيْس قالت: يا رسول الله ، إن بني جعفر تصيبُهم العين ، أفنَسْتَرقي لهم ؟ قال: «نعم . فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»[4] .

فالكُفّار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديدِ العداوة ، فهو نظرٌ يكاد يُزلقه لولا حفظُ الله وعصمتُه ، فهذا أشدُّ من نظر

---

(١) تحرف في «الأصل» إلى هشام بن قتيبة، والصواب ما أثبت!!

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (١٩٧٧٨) والبخاري (١٠/١٧٣) والبغوي في «شرح السنة» (٣١٩٠).

(٣) تحرفت في «الأصل» إلى: عن.

(٤) حديث حسن أخرجه أحمد(٦/٤٣٨) والترمذي (٢/٦) وابن ماجه (٢/٣٥٦)، ومن الطريف أن العلامة الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على هذا الموضع من «التفسير القيم» قال: ما درجة هذه الأحاديث من الصحة؟ فليس كل ما قيل حديثاً يكون حديثاً!! قلت: عجباً، فهما حديثان صحيحان، أحدهما في «صحيح البخاري» كما علمت!

العائِن ، بل هو جنسٌ مِن نظرِ العائن فَمَن قال: إنه من الإِصابة بالعين أراد هذا المعنى ، ومَن قال: ليس به ، أراد أن نظرهم لم يكن نظرَ استحسانٍ وإعجابٍ ، فالقرآن حقٌّ .

وقد روى الترمذيُّ(١) من حديث أبي سعيد «أن النبي ﷺ كان يتعوّذ من عين الإِنسان» فلولا أن العينَ شرٌّ لم يتعوذ منها .

وفي الترمذي(٢) من حديث علي بن المبارك عن يحيىٍ بن أبي كثير حدّثني حيَّة بن حابس(٣) التميمي حدثني أبي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:«لا شيء في الهامِ » ، والعين حقٌّ» .

وفيه(٤) أيضاً من حديث وُهَيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال «كان رسول الله ﷺ يقول: لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استُغْسِلْتم فاغسلوا» وفي الباب عن عبدالله بن عمرو ، وهذا حديث صحيح .

والمقصود: أن العائن حاسدٌ خاصٌّ ، وهو أضرُّ من

---

(١) برقم (٢٠٥٨) وأخرجه النسائي (٨/ ٢٧١) وابن ماجه (٣٥١١) وإسناده حسن.

(٢) برقم (٢٠٦٢) وإسناده منقطع وضعيف.

(٣) في «الأصل»: حابس بن حبة، والصواب ما أثبت.

(٤) برقم (٢٠٦٢)، وأخرجه مسلم (٢١٨٨)، وأبو نعيم في «أخبارأصبهان» (١/ ١٩١).

الحاسد ، ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاءَ في السورة ذكرُ الحاسد دون العائن ، لأنه أعمُّ ، فكل عائنٍ حاسدٌ ولا بُدَّ ، وليس كلُّ حاسدٍ عائناً ، فإذا استعاذ من شر الحاسدِ دخل فيه العائنُ ، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

وأصلُ الحَسَد : هو بغضُ نعمة الله على المحسود ، وتمني زوالها .

فالحاسد عدوّ النِّعم ، وهذا الشرُّ هو من نفسِه وطبعِها ، ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها ، بل هو من خُبثها وشَرِّها ، بخلاف السِّحر ، فإنه إنما يكون باكتساب أمورٍ أُخرى ، واستعانةٍ بالأرواح الشيطانية ، فلهذا ـ والله أعلم ـ قَرَنَ في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الاستعاذةَ من شر هٰذين تَعُمّ كُلَّ شر يأتي من شياطين الإنس والجنّ ، فالحسد من شياطين الإنس والجنّ ، والسحر من النوعين !

وبَقيَ قِسمٌ ينفرد به شياطينُ الجنّ ، وهو الوسوسة في القلب ، فذَكَرَهُ في السورة الأخرى[1] ، كما سيأتي الكلامُ عليها إن شاء الله .

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسودَ والمسحورَ بلا عملٍ

(١) أي سورة «الناس» .

منه ، بل هو أذىً من أمر خارجٍ عنه ، فَفرّقَ بينهما في الذكر في سورة الفلق .

والوسواسُ إنما يؤذي العبدَ من داخلٍ بواسطة مُساكَنَتِهِ له ، وقَبولـه منـه ، ولهـذا يُعاقَبُ العبد على الشّـرِّ الذي يُؤذيه به الشيطانُ من الوساوس التي تقترن بها الأفعالُ ، والعَزمُ الجازمُ ، لأن ذلك بسعيه وإرادته ، بخلاف شَـرِّ الحاسد والساحر فإنه لا يُعاقَبُ عليه ، إذ لا يُضاف إلى كسبه ولا إرادتِه ، فلهذا أفرد شرَّ الشيطانِ في سورة ، وقَرَنَ بين شرِّ الساحر والحاسد في سورة .

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحَسَدُ والسحر للمناسبة .

ولهـذا كان اليهودُ أَسحَرَ الناس وأحسَدَهم ، فإنهم لشدة خُبثهم : فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم .

وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا ، فقال : ﴿واتّبعُوا ما تَتلُوا الشَّيـاطِينُ على مُلكِ سُليمـانَ وما كفَرَ سُلَيمانُ. ولٰكِنَّ الشَّيـاطِينَ كَفـرُوا ، يُعَلّمـونَ النَّـاسَ السِّحرَ . ومَا أُنزلَ عَلَى المَلَكَيْن بِبَـابِلَ هَارُوتَ ومَارُوتَ . وَمَا يُعَلِّمانِ من أَحَدٍ حَتَى يَقُولا : إنما نحنُ فِتنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ . فَيَتَعلّمونَ مِنهُما مَا يُفَرّقونَ به بينَ المَـرءِ وَزَوجِهِ . وَمَا هُم بضارّينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إلّا بإذنِ اللهِ ، ويَتَعلمونَ مَا يَضُرُّهُم وَلَا يَنفَعهُم . وَلَقْدعلمُوا لَمَنِ اشتَراهُ

(١) أنظر «التفسير القيم» (ص ٥٩٦) وما بعد.

مَالَهُ في الآخِـرَةِ مِن خَلاقٍ ، وَلَبِئْسَمَا شَروا به أَنفُسَهم لَو كَانُوا يَعلَمونَ﴾[1]

والكـلامُ على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمّنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمّنته من الفُرقان بين السحـر وبين المعجـزات الـذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ـ وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما ـ في موضع غير هذا .

إذ المقصودُ على أسرار هاتين السورتين وشدةُ حاجة الخلق إليهما ، وأنه لا يقوم غيرُهما مَقَامَهما .

وأما وَصفهُم بالحسد فكثيرٌ في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿أَم يَحسُدونَ النَّاسَ عَلى مَا آتاهُم الله مِن فَضلِهِ﴾[2] وفي قوله : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكم مِن بَعدِ إيمانِكم كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهم الحقُّ﴾[3] .

والشيطانُ يُقـارِنُ السـاحِـرَ والحـاسـدَ ، ويُحـادثهمـا ويصاحبهما ، ولكنّ الحاسد تُعينه الشياطين بلا استدعاءٍ منه

---

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .
(٢) سورة النساء : ٥٥ .
(٣) سورة البقرة : ١٠٩ .

للشيطانِ ، لأنَّ الحاسدَ شَبيهٌ بإبليسَ ، وهو في الحقيقةِ من أتباعه ، لأنه يطلب ما يُحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوالِ نِعَم الله عنهم ، كما أن إبليسَ حَسَدَ آدمَ لِشَرَفِهِ وفَضلِهِ ، وأبى أن يسجد له حَسَداً .

فالحاسدُ من جُند إبليس ، وأما الساحرُ فهو يطلب من الشيطان أن يُعينه ويستعينه . وربما يعبدُه من دون الله ، حتى يقضيَ له حاجتَه ، وربُما يسجدُ له .

وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائبُ ، ولهذا كلما كان الساحرُ أكفَرَ وأخبثَ وأَشَدَّ معاداةً لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحرهُ أقوى وأنفذَ . وكان سحرُ عُبّاد الأصنام أقوى من سِحر أهلِ الكتاب ، وسِحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسُولَ الله ﷺ(١) .

وفي «الموطأ»(٢) عن كعب قال : «كلمات أحفظهنّ من التوراة ، لولاها لجعلتني يهودُ حماراً : أعوذ بوجه الله العظيم ، الذي لا شيء أعظمُ منه ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنّ بر ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى ، ما علمتُ منها

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٠/ ١٩١) و«صحيح مسلم» (٢١٨٩) .
(٢) (٢/ ٩٥١) .

وما لم أعلم : من شر ما خلق ، وذَرَأ ، وبرأَ» .

والمقصودُ : أن الساحر والحاسد كلٌّ منهما قصدُه الشرُّ ، لكنَّ الحاسدَ بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطانُ يقترن به ويعينه ، ويُزيّن له حسده ، ويأمره بموجبه ، والساحرُ بعلمه ، وكَسبه ، وشِرْكه ، واستعانته بالشياطين .

فصل

وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعمّ الحاسدَ من الجنّ والإنس ، فإنّ الشيطانَ وحِزبه يحسدون المؤمنينَ على ما آتاهم الله من فَضله ، كما حسد إبليسُ أبانا آدم ، وهو عدوٌّ لذريته ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُم عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾(١) .

ولكنّ الوسواسَ أخصُّ بشياطين الجنّ ، والحسدَ أخصُّ بشياطين الإنس ، والوسواس يعمّهما ، كما سيأتي بيانُهما ، والحَسَدُ يعمّهما أيضاً ، فكِلا الشَّيطانَيْنِ حاسدٌ مُوَسوس . فالاستعاذة من كل شرٍّ في العالم .

وتضمّنت شروراً أربعةً يُستعاذ منها: شراً عاماً . وهو شرُّ ما خلق ، وشرَّ الغاسق إذا وَقَبَ ، فهٰذان نوعان .

ثم ذكر شرَّ الساحر والحاسد ، وهما نوعانِ أيضاً ، لأنهما من شر النفس الشريرة ، وأحدُهما يستعينُ بالشيطان ويعبدُه ، وهو الساحر ، وقَلَّما يتأتى السحرُ بدون نوع عبادةٍ للشيطان ، وتَقَرُّبٍ إليه: إما بذبحٍ باسمه ، أو بذبحٍ يُقصَدُ به هو ، فيكونُ

---

(١) سورة: فاطر، ٦.

ذَبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشِّـرك والفسوق .

والساحر وإن لم يُسَمِّ هذا عبادةً للشيطان ، فهو عبادةٌ له ، وإنْ سمّـاه بمـا سمّـاه به ، فإنّ الشـركَ والكفرَ هو شركٌ وكفرٌ لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه .

فَمن سجد لمخلوق ، وقال : ليس هذا بسجود له ، هذا خضوعٌ وتقبيلُ الأرضِ بالجبهة ، كما أُقَبِّلُها بالنعم ، أو هذا إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فَليُسَمِّه بما يشاء .

وكذلك مَن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرّب إليه بما يُحب ، فقد عَبَدَهُ ، وإن لم يُسَمِّ ذلك عبادةً ، بل يُسمِّيه استخداماً ، وصَدَق ، هو استخدامٌ من الشيطان له ، فيصيرُ مِن خَدَمِ الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطانُ ، لكنّ خدمةَ الشيطانِ له ليست خدمةَ عبادةٍ ، فإن الشيطانَ لا يخضعُ له ولا يعبدُه ، كما يفعل هو به ! .

والمقصـودُ : أنّ هذا عبـادةٌ منـه للشيطان ، وإنمـا سماه استخـدامـاً ، قال تعالى : ﴿**أَلَم أَعهَد إلَيكُم يا بَني آدَمَ أَن لا تَعبُدُوا الشَّيطانَ ؟ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبينٌ**﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿**وَيَومَ**

---

(١) سورة يٓس : ٦٠ .

يَحشُرُهُم جَمِيعَاً ثُمَّ يَقُولُ لِلمَلائِكَةِ: أَهؤُلاءِ إِيَّاكُم كانُوا يَعبدُونَ ؟ قَالُوا: سُبحَانَكَ ، أَنتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِم ، بَل كَانُوا يَعبدُونَ الجِنَّ ، أَكثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُونَ﴾[1] .

فهؤلاء وأشباهُهم عبادُ الجنّ والشياطين ، وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة . ولبئس المولى ، ولبئس العشيرُ ، فهذا أحدُ النوعين .

والنوع الثاني : مَن يُعينه الشيطانُ ، وإن لم يستعن هو به ، وهو الحاسدُ . لأنه نائبُه وخليفتُه ، لأنّ كليهما عدوُّ نِعَم الله ، ومُنَغّصها على عباده .

---

(١) سورة سبأ: ٤٠، ٤١ .

فصل

وتأمَّل تقييدَه سبحانه شرَّ الحاسد بقوله: ﴿إذا حَسَدَ﴾ لأنَّ الرَّجل قد يكونُ عنده حسدٌ ، ولكن يُخفيه ، ولا يُرَتِّبُ عليه أذىً بوجهٍ ما ، لا بقلبهِ ، ولا بلسانهِ ، ولا بيدهِ ، بل يجدُ في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعاملُ أخاه إلا بما يُحبُّ الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحدٌ إلا من عصمه الله .

وقيل للحَسَن البَصري : أيَحسُدُ المؤمنُ ؟ قال : ما أنساكَ لإخوة يوسف ! .

لكنَّ الفَرقَ بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يُطيعها ولا يأتمرُ بها ، بل يَعصيها طاعةً لله وخوفاً وحياءً منه ، وإجلالاً له ، أن يكره نِعَمَهُ على عباده ، فيرى ذلك مخالفةً لله وبغضاً لما يُحبّ الله ، ومحبةً لما يُبغضه ، فهو يجاهدُ نفسَه على دفع ذلك ، ويُلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمني زيادةِ الخيرِ له ، بخلاف ما إذا حقّقَ ذلك وحَسَدَهُ ورتّب على حسدِهِ مقتضاهُ مِنَ الأذى بالقلبِ ، واللسانِ والجوارِح .

فهذا الحسد المذموم . هذا كلُّه حسدُ تمني الزوالِ .

وللحَسَد ثلاثُ مراتبَ : إحداها هذه :

والثـانية: تمني استصحـاب عدم النعمـة ، فهو يكره أن يُحـدِثَ الله لعبـده نعمـةً ، بل يُحبّ أن يبقى على حاله مِن جَهلِهِ ، أو فَقرِهِ ، أو ضَعفِهِ ، أو شَتَاتِ قلبه عن الله ، أو قِلّة دينه ، فهو يتمنى دوامَ ما هو فيه من نَقصٍ وعَيبٍ ، فهٰذا حَسَدٌ على شيء مُقَدَّر .

والأول حَسَدٌ على شيء مُحقق ، وكلاهما حاسِدٌ ، عدوُّ نعمـة الله ، وعـدوُّ عبـاده ، وممقـوتٌ عند الله تعالى ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً ، ولا يواسَىٰ فإنّ الناسَ لا يُسوِّدون عليهم إلا مَن يريدُ الإحسـان إليهم ، فأما عدوُّ نعمةِ الله عليهم فلا يُسَـوِّدونه باختيارهم أبداً إلا قهراً يعدّونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها ، فهم يُبغضونه وهو يُبغضهم .

والحَسَدُ الثالثُ: حسد الغِبْطة ، وهو تمني أن يكونَ له مثلُ حالِ المحسودِ من غير أن تزول النعمةُ عنه ، فهذا لا بأس به ، ولا يُعاب صاحبه ، بل هذا قريبٌ من المُنافسة[1] .

وقـد قال تعـالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2] وفي الصَّحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين:

---

(١) فليتق الله الحاسدون، وليكن حسدُهم غبطةً، لئلا يكونوا شياطين من شياطين الإنس بنظراتهم، وسواد قلوبهم، وشدَّة حسدهم!!

(٢) سورة المطففين: ٢٦.

رجل آتاه الله مالاً ، وسَلّطه على هَلَكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمةَ ، فهو يقضي بها ويُعلّمها الناس»[1] .

فهذا حسد غِبطة ، الحاملُ لصاحبه عليه كِبرُ نفسه ، وحُبُّ خصال الخير ، والتشبّه بأهلها ، والدخول في جملتهم ، وأَن يكونَ مِن سُبَّاقهم وعِليتهِم ، ومُصَلِّيهم لا من فَسَاكِلهم[2] ، فتحدثُ له من هذه الهِمّة المُنافَسةُ والمُسابَقةُ والمُسارَعةُ ، مع محبّته لمن يغبِطُه ، وتمني دوام نعمة الله عليه ، فهذا لا يدخل في الآيةِ بوجهٍ ما .

فهذه السورةُ مِن أكبر أدويةِ الحَسَد ، فإنّها تتضمّنُ التوكّلَ على الله ، والالتجاءَ إليه ، والاستعاذَة به من شر حاسد النعمة ، فهو مستعيذٌ بولي النعم ومُوَلّيها ، كأنّه يقول : يا من أولاني نعمتَه وأسداها إليَّ أنا عائذٌ بك مِن شَرِّ مَن يريدُ أَن يَستَلِبَها مني ، ويُزيلَها عني .

وهو حَسبُ مَن توكل عليه ، وكافي مَن لَجأَ إليه ، وهو

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٥٣) ومسلم (٨١٦) عن ابن مسعود، وفي الباب عن ابن عمر، وعن أبي هريرة، وانظر لزاماً شرح الحافظ له في «فتح الباري».

(٢) مفردها فُسْكُل، وهو الفرس الذي يجيء في حَلَبة السباق آخر الحبل، والمُصلّي : الذي يجيء منها تلو السابق.

الذي يُؤمِّنُ خَوفَ الخائف ، ويُجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير ، فمن تولّاه واستنصر به ، وتوكل عليه وانقطع بكلّيته إليه، تولّاه وحفظه وحَرسَه وصانه ، ومَن خافه واتقاه أمَّنه مِما يخافُ ويَحذَرُ ، وجَلَبَ إليه كُلَّ ما يحتاج إليه من المنافع ﴿**وَمَن يَتَقِّ الله يَجعَل لَه مَخرجاً وَيَرزُقهُ مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ . وَمَن يَتوكَّل عَلى الله فَهوُ حَسبُهُ**﴾(١) .

فلا تستبطىء نَصرَه ورِزقَه وعافِيَته ، فإنّ الله بالغُ أمرِهِ ، وقد جعل الله لكل شيء قَدراً ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

ومن لم يَخفه أخافه من كل شيء ، وما خاف أحدٌ غيرَ الله إلا لِنَقص خوفه من الله ، قال تعالى : ﴿**فإذا قَرَأتَ القرآن فَاستَعِذ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم . إنهُ لَيسَ لَهُ سُلطانٌ عَلى الذينَ آمَنُوا وعَلى رَبِّهِم يَتَوكَّلونَ . إنما سُلطَانُهُ على الذينَ يَتَوَلَّونَهُ والذينَ هُم بِهِ مُشركونَ**﴾(٢) وقال : ﴿**إنَّما ذلِكُم الشَّيطانُ يُخَوِّفُ أَولِياءَهُ . فَلا تَخافُوهُم ، وخَافُون إن كُنتُم مُؤْمِنينَ**﴾(٣) أي : يُخَوِّفكم بأوليائه ، ويُعظّمهم في صدوركم . فلا تخافوهم ، وأَفرِدوني بالمخافةِ أكفِكم إياهم .

---

(١) سورة الطلاق، ٢، ٣.

(٢) سورة النحل: ٩٨، ٩٩.

(٣) سورة آل عمران: ١٧٥.

فصــــل

ويندفع شرُّ الحاسِد عن المحسودِ بعشرة أسباب : .

أحدها : التعوّذُ بالله من شَـرّه ، والتحصّنُ به واللَّجَأُ إليه .

وهو المقصود بهذه السُّورة ، والله تعالى سميعٌ لاستعاذته ، عليمٌ بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به : سَمعُ الإجابة ، لا السمع العام ، فهو مثل قوله : «سمع اللهُ لِمَن حَمِدَه» وقول الخليل ﷺ : ١٤ : ٣٩ ﴿إنَّ رَبّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾(١) ومرة يقرِنُهُ بالعلم ، ومـرة بالبصـر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك ، فإنه يستعيذ به من عَدُوٍّ يعلم أن الله يراه ، ويعلمُ كيدَه وشرَّه .

فأخبر الله تعالى هذا المستعيذَ أنه سميعٌ لاستعاذته ، أي مجيبٌ ، عليمٌ بكيدِ عدوِّه ، يراهُ ويُبصـره ، لينبسطَ أمـلُ المستعيذ ، ويُقبِلَ بقلبه على الدعاء .

وتأمَّل حكمةَ القرآن ، كيف جاءَ في الاستعاذة من الشيطان الـذي نعلم وُجـوده ولا نراه بلفظ :﴿السَّمِيـعُ العَلِيمُ﴾(٢) في الأعـراف وحَمّ السجدة . وجاءت الاستعاذة من شر الإنس

(١) سورة إبراهيم : ٣٩ .

(٢) بل في سورة فُصّلت : ٣٦ .

الذين يُؤنَسون ويُرون بالأبصار بلفظ: ﴿السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ في سورة حَمّ المؤمن ، فقال: ﴿إنَّ الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ الله بغَيرِ سُلطانٍ أَتَاهُم ، إن في صُدُورِهِم إلَّا كِبرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ ، فَاستَعِذ باللهِ إنَّه هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ ، لأنّ أفعالَ هؤلاءِ أفعالُ معايَنةٍ تُرى بالبصر ، وأما نزغ الشيطان فوساوسُ ، وخَطَراتٌ يُلقيها في القلب ، يتعلّق بها العلمُ ، فأَمَرَ بالاستعاذةِ بالسميع العليم فيها ، وأَمَر بالاستعاذةِ بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ، ويدرَك بالرؤية . والله أعلم .

السبب الثاني: تقوى اللهِ ، وحفظُه عند أمره ونهيه .

فمن اتقى الله تَولَّى الله حِفظَه ، ولم يَكِله إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصبِرُوا وتَتَّقُوا لَا يَضرُّكُم كَيدُهم شَيئاً﴾ وقال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك»(١) ، فمن حَفِظَ الله حفظَه الله، ووجده أمامه أينما توجّه ، ومَن كان الله حافظه وأمامَه فممن يخاف ؟ ومَن

(١) أخرجه أحمد (١/٣٠٧) والترمذي (٢٦٣٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٧٥) والطبراني في «الكبير» (١١/٢٢٣) وأبو نعيم (١/٣١٤) عن ابن عباس بإسناد حسن، وورد أيضاً عن أبي سعيد الخدري، وانظر جامع العلوم والحكم (٥/٢١٠) للحافظ ابن رجب.

يحذرُ ؟

السبب الثالث: الصبر على عدوّه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يُحدّث نفسه بأذاه أصلاً .

فما نُصِر على حاسده وعدوّه بمثل الصبر عليه ، والتوكّل على الله ولا يستطل تأخيرَه وبغيَه ، فإنه كلما بغىٰ عليه كان بغيُه سهامٌ يرميها من نفسِه إلى نفسِه .

ولو رأى المبغي عليه ذلك لسَرَّه بغيُه عليه ، ولكن لِضَعفِ بصيرته لا يرى إلا صورةَ البغي ، دون آخرِه ومآلِه ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَن عاقَبَ بِمثِلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيهِ لَيَنصُرَنَّه اللهُ﴾[1] فإذا كان الله قد ضَمِنَ له النصرَ ، مع أنه قد استوفى حقّه أولاً ، فكيف بمن لم يستوفِ شيئاً من حَقّه، بل بُغي عليه وهو صابرٌ؟ وما من الذنوب ذنبٌ أسرعُ عقوبةً من البغي وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سُنَّةُ الله : أنه لو بغى جَبَلٌ على جَبَل لجعل الباغي منهما دَكَّاً ! !

السبب الرابع : التوكّل على الله .

فِمَنْ يتوكلْ على الله فهو حَسْبهُ ، والتوكّل من أقوى الأسباب التي يَدْفَعُ بها العبدُ ما لا يطيقُ من أذى الخَلْقِ وظُلمهم

---

(١) سورة الحج : ٦٠ .

وعُدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب في ذلك ، فإن الله حَسْبهُ ، أي : كافيهِ ، ومَن كان الله كُافِيهُ وَوَاقِيهُ فلا مَطْمَعَ فيه لعدوّه ، ولا يضرُّه إلا أذىً لا بد منه ، كالحرِّ والبردِ والجوع والعَطَش ، وإما أن يضرّه بما يبلغ منه مرادهَ فلا يكونُ أبداً وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرارٌ بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفّى به منه .

قال بعض السَّلفَ : جعـل الله لكـلِّ عمـلٍ جزاءً من جنسه ، وجعل جزاءَ التوكّل عليه نفسَ كفايتهِ لعبده ، فقال : ﴿وَمَنْ يَتَوكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(١) ولم يَقُلْ : نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافيَ عبده المتوكّلِ عليه وحَسْبهَ ، وَوَاقِيهُ ، فلو توكّل العبدُ على الله حقَّ توكّله ، وكادته السمواتُ والأرضُ ومَنْ فيهنّ لجعل له ربُّه مخرجاً من ذلك ، وكفاهُ ونَصَرَهُ .

وقـد ذكرنا حقيقة التوكّل وفوائده ، وعظم منفعته ، وشدة حاجة العبد إليه في كتاب «الفتح القُدْسي»(٢) وذكرنا هناك فسادَ مَنْ جعله من المقـاماتِ المعلولة ، وأنه من مقامات العوام .

---

(١) سورة الطلاق : ٣ .

(٢) من كتب المصنف المفقودة وانظر «هدية العارفين» (٢/١٥٨) وكتاب «ابن قيم الجوزية : حياته وآثاره» (ص ١٧٥) لبكر بن عبدالله أبو زيد .

وأبطلنا قولَه من وجوه كثيرة . وبَيَّنَا أنه مِن أَجَلِّ مقامات العارفين ، وأنه كلما علا مقامُ العبدِ كانت حاجتهُ إلى التوكل أعظم وَأشدَّ وأنه على قَدْرِ إيمان العبد يكونُ توكلُّه .

وإنما المقصودُ هنا ذكرُ الأسبابِ التي يندفع بها شرُّ الحاسدِ والعائنِ ، والساحرِ والباغي !

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفِكْر فيه .

وأن يقصد أن يمحوه من باله كلّما خطر له ، فلا يلتفتُ إليه ولا يخافُه ، ولا يملأ قلبه بالفِكْر فيه .

وهذا من أنفعِ الأدويةِ وأقوى الأسبابِ المُعينة على اندفاع شَرِّه ، فإن هذا بمنزلة مَنْ يطلبهُ عدوُّه ليُمسِكَه ويُؤذيه ، فإذا لم يتعرّض له ولا تماسك هو وإيّاه ، بل انعزل عنه لم يَقْدِرْ عليه ، فإذا تماسكا وتعلّق كلٌّ منهما بصاحبه ، حصل الشرُّ وهكذا الأرواحُ سواءً،فإذا علَّق روحَه وشَبَّثها به ، وروحُ الحاسد الباغي متعلقةٌ به يقظة ومناماً ، لا يفتُر عنه ، وهو يتمنّى أن يتماسك الروحانِ ويتشبّثا ، فإذا تعلّقت كلُّ روحٍ منهما بالأخرى عُدِم القرارُ ، ودام الشرُّ ، حتى يَهْلَك أحدُهما ، فإذا جَبَذَ[1] روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلّق به ، وأن لا يخطره ببال ،

(١) أي : جذب .

فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغالِ بما هو أنْفَعُ له وَأوْلَىٰ به ، بقي الحاسدُ الباغي يأكل بعضُه بعَضاً . فإنَّ الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكلُه أكل بعضُها بعضاً .

وهـذا بابٌ عظيمُ النفع لا يُلقَّاه إلا أصحابُ النفوس الشريفةِ والهِمَم العلّية ، وبين الكَيِّس الفَطِن وبينه حتى يذوقَ حلاوتَه وطِيْبَه ونَعِيْمَه كأنه يرى من أَعظم عَذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه ، وتعلّق روحه به ، ولا يرى شيئاً آلم لروحِـهِ من ذلـك ، ولا يُصدّق بهذا إلا النفوسُ المطمئنةُ الـوادعةُ اللَّيِّنةُ ، التي رضيت بوكالة الله لها ، وَعَلِمَتْ أنَّ نصـره لهـا خيرٌ من انتصارها هي لنفسها ، فَوَثَقَتْ بالله ، وَسَكَنَتْ إليه ، واطمـأنَّت به ، وعلمت أنَّ ضمـانَه حقٌّ ، ووعدَه صدقٌ ، وأنه لا أوفى بعهده مِنَ الله ، ولا أصدق منه قيلًا ، فعلمت أنَّ نصـرهَ لهـا أقوى وأثبتُ وأدْوَمُ ، وأعظمُ فائدةً مِن نصرها هي لنفسِها ، أو نصرِ مخلوقٍ مثلها لهَا ، ولا يُقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

[الـسـبـب الـســادس]: وهــو الإقبــالُ على الله ، والإخلاص لهُ .

وجَعْلُ محبتِهِ ورضاه والإنابةِ إليه في محل خواطر نفسه ، وأمانيها تدبُّ فيها ... الخواطر شيئاً فشيئاً ، حتى يقهرها ويغمرها ويُذهبها بالكلّية ، فتبقى خواطرهُ وهواجِسهُ وأمانيُه كلُّها في محـابِّ الرب ، والتقرّب إليه وتملّقه وترضيه ، واستعطافه

وذِكْـرِهِ كمـا يذكر المحبُّ التامُّ المحبةَ مَحْبُوبَهُ المحسنَ إليه الذي قد امتلأت جوانِحهُ مِنْ حُبّه ، فلا يستطيعُ قلبهُ انصرافاً عن ذِكْـرِه ، ولا روحُـه انصرافاً عن محّبته ، فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيتَ أفكاره وقلبه معموراً بالفكْر في حاسده والباغي عليه ، والطريقِ إلى الانتقام منه ، والتدبيرِ عليه؟

هذا ما لا يتسع له إلا قلبٌ خرابٌ لم تسكن فيه محبةُ الله وإجـلالُه وطلبُ مرضاته ، بل إذا مَسه طَيْفٌ من ذلك واجتـازَ ببـابـه من خارج ، ناداه حَرَسُ قلبه : إياكَ وحِمَى المُلك ، اذهب إلى بيوت الخانات التي كلُّ مَنْ جاء حَلَّ فيها ، ونزل بها ، مالَكَ ولبيتِ السلطانِ الذي أقام اليَزكَ[1] وأدار عليه الحرسَ ، وأحاطه بالسُّوْر ، قال تعالى حكايةً عن عدوه إبليس أنـه قال : ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أجْمعِينَ ، إلاَّ عَبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ**﴾[2] ، فقال تعالى : ﴿**إنَّ عَبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[3] ، وقال : ﴿**إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتوكَّلونَ إنَّما سُلْطَانُهُ عَلىٰ الَّـذِين يَتَـوَلَّـوْنَهُ وَالَّذِينُ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾[4] وقال في

---

(١) لعلها بمعنى السياج.

(٢) سورة ص : ٨٢ .

(٣) سورة الحجر: ٤٢ .

(٤) سورة النحل: ٩٩ .

حَقّ الصـــدّيق يوسفَ ﷺ : ﴿كـذلـكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُخْلصينَ﴾[1] .

فمـا أعـظمَ سعادةَ مَنْ دخل هذا الحصنَ ، وصار داخلَ اليَزَكِ ، لقد آوى إلى حِصْن لا خَوْفَ على من تحصَّن به ، ولا ضَيْعَةَ على من آوى إليه ، ولا مَطْمَعَ للعدّو في الدنوّ إليه منه ﴿وَذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾[2] .

السبب السـابع : تجريدُ التوبة إلى الله من الذنوبِ التي سَلَّطَتْ عليه أعداءه .

فإن الله تعالى يقول : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصيبَةٍ فَبما كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ﴾[3] وقال لخير الخَلْق ، وهم أصحابُ نبيِّه دُوْنَه ﷺ : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُم : أَنَّى هٰذا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[4] .

فمـــا سُلّط على العبـــد مَنْ يُؤذِيه إلا بذنبٍ يعلمُـه أو لا يعلمُه ، وما لا يعلمُه العبدُ مِنْ ذنوبه أضعافُ ما يعلمه منها ، وما ينساه مِمَّا عمله أضعافُ ما يذكره .

---

(١) سورة يوسف : ٢٤ .

(٢) سورة الحديد : ٢١ .

(٣) سورة الشورى : ٣٠ .

(٤) سورة آل عمران : ١٦٥ .

وفي الدُّعاءِ المشهورِ: «اللهمّ إني أعوذُ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم»[1].

فما يحتاج العبدُ إلى الاستغفارِ منه مما لا يعلمه أضعافُ أضعافِ ما يعلمه ، فما سُلّط عليه مؤذٍ إلا بذنب .

ولقي بعضَ السَّلَف رجلٌ فأغلظ له ونال منه ، فقال له: قف حتى أدخلَ البيتَ ، ثم أخرج إليك ، فدخل فسجد لله وتضرّع إليه وتابَ وأنابَ إلى ربه ، ثم خرج إليه فقال له: ما صنعتَ؟ فقال: تبتُ إلى الله من الذنب الذي سَلّطك به عَلَيَّ .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شرٌّ إلا الذنوبَ وموجباتِها . فإذا عوفي العبدُ من الذنوب عوفي مِن موجباتِها ، فليس للعبدِ إذا بُغِيَ عليه وأوذي وتَسَلّط عليه خصومُه شيءٌ أَنفَعَ له من التوبة النَّصُوح .

وعلامةُ سعادتهِ: أن يعكس فكرَهُ ونظرهُ على نفسِهِ وذنوبِهِ وعيوبِهِ ، فيشتغلُ بها وبإصلاحِها وبالتوبةِ منها ، فلا يبقى فيه فَرَاغٌ لتدبّر ما نزل به ، بل يتولّى هو التوبةَ وإصلاحَ عيوبه ، واللهُ

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٨٢ ـ مهذبي)، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٦٢٥) ونسبه للحكيم الترمذي عن أبي بكر وصححه شيخنا «صحيح الجامع» (٤/٢٣٣) .

يتولى نصرَتَه وحِفظه ، والدفْعَ عنه ولا بُدّ .

فما أسعدَه من عبد ، وما أبركها من نازلةٍ نزلت به ، وما أحسنَ أثرَها عليه ، ولكنّ التوفيقَ والرشدَ بيد الله ، لا مانعَ لما أعْطىٰ ، ولا مُعطيَ لما مَنَعَ ، فما كلُّ أحدٍ يُوَفَّقُ لهذا ، لا معرفةً به ، ولا إرادةً له ، ولا قُدْرَةً عليه ، ولا حوّلَ ولا قوّةَ إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقةُ والإحسان ما أمكنه .

فإنّ لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ، ودفع العين ، وشر الحاسد ، ولو لم يكن في هذا إلا بتجارِبِ الأمم قديماً وحديثاً لكفى به .

فمــا تكــادُ العينُ والحَسَـدُ والأذىٰ يتسلّطُ على مُحسن متصدّقٍ ، وإن أصابه شيءٌ من ذلك كان معامَلاً فيه باللطفِ والمعونةِ والتأييدِ ، وكانت له فيه العاقبةُ الحميدةُ .

فالمحُسن المُتصدّق في خَفَارة إحسانه وصدقته ، عليه من الله جُنَّةٌ واقيةٌ ، وحِصْنٌ حصينٌ .

وبالجملة : فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها .

ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن . . فإنه لا يفترُ

ولا يَني[1] ، ولا يبـرد قلبـه حتى تزولَ النعمةُ عن المحسود ، فحينئـذ يبردُ أنينهُ وتتطفىءُ نارُه . . لا أطفأها اللهُ ـ فما حَرَسَ العبدُ نعمةَ الله عليه بمثل شُكرها ، ولا عَرَّضها للزوالِ بمثل العَمَل فيها بمعاصي الله ، وهو كفرانُ النعمة ، وهو بابٌ إلى كفران المنعم .

فالمحسُن المُتصدّق يستخدم جنداً وعَسْكراً يُقاتلون عنه وهو نائمٌ على فراشه ، فمن لم يكن له جندٌ ولا عَسْكرٌ ، وله عدوٌّ ، فإنه يوشك أن يظفر به عدوُّه ، وإن تأخَّرَتْ مدةُ الظفر . والله المستعان .

السبب التـاسـع : وهـو من أصعب الأسبـاب على النفس ، وأشقِّها عليها ، ولا يُوفَّق له إلا مَنْ عَظم حظُّه مِنَ اللهِ ـ وهـو إطفـاءُ نارِ الحَاسدِ والباغي والمؤذي بالإحسان إليه ، فكلمـا ازداد أذىً وشـراً وبغياً وحَسَـداً ازددت إليه إحساناً ، وله نصيحةً ، وعليه شفقةً . وما أظنُّك تُصَدِّق بأنَّ هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعاطاه .

فاسمـع الآنَ قولـه عز وجـل : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فإذَا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ

---

(١) يضعف.

وليٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلقَّاهَا إلاّ الّذينَ صَبَروا . وما يُلقَّاهَا إلا ذو حَظٍّ عظيمٍ . وَإمَّا ينْزغَنَّك مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ . إنَّه هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[١]، وقال: ﴿أُولئِكَ يُؤتَوْنَ أجرَهُمْ مَرَّتيْن بمَا صَبَروا ، وَيدْرءونَ بالحَسَنةِ السَّيِّئة . وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢] .

وتأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومُه حتى أدْمَوهُ ، فجعل يَسْلُتُ الدمَ عنه ، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٣] . كيف جمع في هذه الكلمات أربعَ مقامات من الإحسان ، قابَل بها إساءتَهم العظيمة إليه؟

أحدها: عفوهُ عنهم .

والثاني: استغفارهُ لهم .

والثالث: اعتذارهُ عنهم بأنهم لا يعلمون .

والرابع: استعطافهُ بإضافتهم إليه . فقال: «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفعُ عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي ، هذا غلامي ، هذا صاحبي ، فَهَبْهُ لي .

---

(١) سورة فصلت: ٣٤.

(٢) سورة القصص: ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري (١٢/٢٤٩) ومسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود بنحوه.

واسمع الآنَ ما الذي يُسَهّل هذا على النفس ، وَيُطَيِّبهُ إليها ويُنْعِمُها به :

اعلم أنَّ لك ذنوباً بينك وبين الله ، تخافُ عواقبها ، وترجوه أنْ يعفو عنها وَيَغْفِرها لك ويَهَبَها لك ، ومع هذا لا يقتصرُ على مُجَرَّد العفو والمسامحةِ ، حتى يُنْعِمَ عليك ويُكْرِمَكَ ، ويجلبَ إليك مِنَ المنافع والاحسان فوق ما تُؤمِّلُهُ .

فإذا كنتَ ترجو هذا من ربِّك ، وتحبُّ أن يقابل به إساءتَك ، فما أَوْلاكَ وأجْدَرك أنْ تُعامِلَ به خَلْقَه ، وتقابل به إساءتَهم؟ ليُعامِلك الله تُلك المعاملةَ ، فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل[1] ، فكما تَعْمَلُ مَعَ الناسِ في إساءتهم في حقّك يفعلُ الله معك في ذنوبك وإساءتك ، جزاءً وفاقاً ، فانتقِمْ بعد ذلك ، أو اعفُ ، وَأحْسِنْ أو اتْرُكْ . فكما تَدِينُ تُدانُ ، وكما تفعل مُع عبادهِ يَفْعَلُ معك .

فَمَنْ تَصَوَّرَ هذا المعنى ، وشَغَلَ به فِكْرَهُ ، هان عليه الإحسانُ إلى مَنْ أساء إليه .

وهذا مع ما يحصلُ له بذلك مِنْ نَصْرِ الله وَمِعيَّتِهِ الخاصة . كما قال النبيُّ ﷺ للذي شكى إليه قرابته ، وأنه يُحسن إليهم ،

---

(١) انظر ما تقدم (ص ٢٠).

وهم يسيئون إليه ، فقال : «لا يزالُ معك من الله ظهيرٌ ، ما دُمْتَ على ذلك»[1] .

هذا مع ما يتعجّله من ثناء الناس عليه ، ويَصيرون كلُّهم معه على خصمه ، فإنَّ كُلَّ من سمع أنه محسنٌ إلى ذلك الغير ، وهو مُسيءٌ إليه ، وجد قلبَه ودعاءه وهِمَّتَهُ مع المُحسن على المسيء ، وذلك أمرٌ فطريٌّ ، فَطَرَ الله عُليه عبادَه .

فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عَسْكراً لا يَعْرِفُهم ولا يَعْرِفونه ، ولا يرُيدون منه إقطاعاً ولا خُبْزاً .

هذا مَعَ أنه لا بُدّ له مع عدوّه وحاسِده من إحدى حالتين :
إما أن يملكه بإحسانه ، فيستعبدَه وينقادَ له ويذلَّ له ، ويُبقي الناسَ إليه .
وإما أن يُفَتّتَ كبدَه ويقطعَ دابره ، إنْ أقام على إساءته إليه ، فإنه يُذيقه بإحسانه أضعافَ ما ينال منه بانتقامه .

وَمَنْ جَرَّبَ هذا عرفه حق المعرفة . والله هو المُوفقّ والمُعين ، بيده الخيرُ كلُّه ، لا إلـه غيرهُ ، وهو المسؤولُ أنْ يستعملنَا وإخواننَا في ذلك بِمَنِّه وكَرَمه .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) وأحمد (٢/١٨١ و ٢٠١ و٢٠٠ و ٤١٢ و ٤٨٤)، والبغوي (٣٤٣٦) عن أبي هريرة.

وفي الجملة: ففي هذا المقامِ من الفوائد ما يزيدُ على مئة منفعة للعبد، عاجلة وآجلة، سنذكرها في موضع آخرَ إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كلِّه، وعليه مدارُ هذه الأسبابِ وهو تجريدُ التوحيد، والترحّلُ بالفكر في الأسباب إلى المُسَبِّبِ العزيز الحكيم، والعلمُ بأن هذه الآلاتِ بمنزلة حَرَكات الرياح، وهي بيدِ مُحَرِّكِها، وفاطِرِها وبارئِها، ولا تضرُّ ولا تنفعُ إلا بإذنه، فهو الذي يُحَسّن عبده بها، وهو الذي يصرفُها عنه وحدَه لا أحدَ سواه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾(١).

وقال النبيُّ ﷺ لعبدِ الله بنِ عباسٍ رضي الله عنهما: «واعلم أنّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروّك إلا بشيء كتبه الله عليك»(٢).

فإذا جَرَّدَ العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع اللهِ بل يُفْرِدُ اللهَ بالمخافةِ

---

(١) سورة يونس: ١٠٧.
(٢) قطعة من حديث: «احفظ الله يحفظك..» وقد تقدم تخريجه.

وقد أمَّنَهُ منه ، وخَرَجَ مِن قلبه اهتمامُه به ، واشتغالُه به ، وفكرهُ فيه ، وتجـرّد لله محبةً وخشيةً وإنابةً وتوكلًا ، واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن إعْمَالَهُ في أمر عدوِّه وخوفَه منه واشتغالَه به مِنْ نقص توحيدِه ، وإلّا فلو جَرّدَ توحيدَه لكان له فيه شُغْلٌ شاغِلٌ ، واللهُ يتولى حِفْظَه والدَّفْعَ عنه ، فإنَّ الله يُدافع عن الذين آمنوا ، فإنْ كان مُؤمناً بالله ، فالله يدافعُ عنه ولا بُد .

وبحسب إيمانه يكونُ دفاعُ الله عنه ، فإنّ كَمُلَ إيمانهُ كان دَفْعُ اللهِ عنه أتمَّ دَفع ، وإنْ مَزَجَ ، مَزَجَ له . وإنْ كان مرةً ومرةً فاللهُ له مرةً ومرةً ، كما قال بعضُ السَّلف: مَنْ أقْبَلَ على الله بكليتهِ أقبلَ اللهُ عليه جملة ، ومَنْ أعْرَضَ عن اللهِ بكليته أعْرَضَ اللهُ عنه جُمْلة ، ومن كان مَرَّةً ومرةً فاللهُ له مرةً ومرةً .

فالتـوحيدُ حِصْنُ اللهِ الأعـظمُ الـذي مَنْ دَخَلَهُ كان من الآمنين ، قال بعض السَّلف(٢): مَنْ خاف الله خافه كلُّ شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

هذه عشرةُ أسبابٍ يندفعُ بها شرُّ الحاسِد والعائنِ والساحِر ، وليس له أنفعُ من التوجّه إلى الله وإقبالِه عليهِ ، وتوكّلِه عليه ،

---

(١) هو عمر بن عبدالعزيز، رواه عنه البيهقي في «شعب الإيمان» كذا في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٤٩) وبعضهم ينسبه لرسول الله ﷺ ولا يصح عنه، وانظر «مختصر المقاصد الحسنة» (رقم: ١٠٢٤) وتعليق محقق عليه.

وثقتهِ به ، وأن لا يخافَ معه غَيْرَهُ ، بل يكونُ خوفهُ منه وحدَه ، ولا يُعَلق قلبَه بغيره ، ولا يستغيثُ بسواه ، ولا يرجو إلا إيــاه ، ومتى علَّق قلبَه بغيره ورجاه وخافَه : وُكِلَ إليه وخُذِلَ مِنْ جهته ، فَمَنْ خاف شيئاً غيرَ الله سُلِّط عليه ، ومَنْ رجا شيئاً سوى اللهِ خُذِلَ من جهته وحُرم خَيْرَهُ ، هذه سُنَّة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، [والحمد لله رب العالمين] .